

# الطريق الى الوردية

لاسمك رائحة الحزن والياسمين ،  
ورائحة الامم البائدة  
فهل أتوقف حيناً ،  
والقي الفراق  
وأعقد مع صمتك الكارثي اتفاقاً  
ونهوي على شرفات البكاء قليلاً ،  
ونجمع أيماننا الشارده ؟  
ولاسمك رائحة الموت أبتها المرآة الماردة !  
فماذا عن الطقس والحالة الباردة ؟!  
- تعودت ...  
- لماذا أراك تموتين ؟  
لا .  
أنت لا يعرف الموت دربا اليك ،  
ولكن لماذا أراك تنامين مكشوفة ،  
في العراء ؟!  
تنامين وحدك كالشاهدة .  
وكيف تبعين نفسك للغرباء  
وترضين صك انتدابك للقبعات ،  
وللعملة الوافدة  
وتسعين ابنك في مهرجان البكاء ،  
- وحيدا  
ولا تمنحين سوى السحنة الجامدة  
فهل أنت مأواي ،  
هل أنت أمي التي أرضعتني الحليب ،  
وأقرحها برق أيماننا الواعده ؟  
وما الفائدة ؟  
إذا كنت تسقينني الآن ، مر العذاب ،  
تدعينني نحو كل المنافي ،  
وأنت على أرثنا قاعده !  
لمن أقرأ الآن من دفتر الجوع ،  
آخر ما سطر الفقراء  
وما جرّع القلب أو كابده ؟  
وكنت أسير غيابك ،  
سجلت أسماء كل المقاهي التي رفضتني ،  
وكل النساء اللواتي عرفت ، وأحببت ،  
خليتني للتسكع في خدمات الشوارع .  
والمدن الجاحدة .  
تبارك هذا الشجي والحضور  
تبارك هذا البعاد ، وحذر المرور  
تبارك هذا الطريق الجديد الى الوردية

محمد القيسي

لن نقف عند هذه المرحلة الطويلة التي تحتاج لتفصيلات أوفى ، بل سنتخطاها لرحلة أكثر اهمية بالنسبة لتبيننا للظواهر الملحمية التي سبقت المسرح الحديث ومهدت له . وسنجد ان انتاج الحركة الرومانتيكية في المسرح - ودلالته الادبية والشعرية أكبر بكثير من دلالاته المسرحية - ينطوي على ظاهرة نلاحظ استمرارها في الدراما الملحمية الحديثة بين الناحيتين الشكلية والموضوعية ، ألا وهي ظاهرة التأمل الذي يوقف الحدث ويكسر حاجز الخيال او يقوم بتعطيم الوهم .  
واوضح مثل على هذا هي مسرحية الشاعر الكاتب الرومانتيكي لودفيج تيك ( 1772 - 1852 ) المعروفة « القط ذو الحذاء » (1) اذ نجد حنوة الاطفال المشهورة تتحول الى مناسبة لتوجيه النقد والسخرية بحركة التنوير وتكلف كتاب المسرح وغباء الجمهور .. الخ ويستمر التعطيم للوهم المسرحي بحيث تبدو مستويات الوهم والواقع المختلفة وكأنها مسرح يكشف الفناع عن نفسه او يؤكد انه ليس الا مسرحا او تمثيلا في تمثيل ! بهذا يظهر الواقع والتمثيل في صورتين ، نسبو احدهما لدى الممثل الذي يكسر الموقف المسرحي ويخترق الخشبة منتجها بحديثه للجمهور ، وتبدو الاخرى لدى الجمهور الذي لا يتوقف عن توجيه تعليقاته او صغيره للممثلين فيكسر بدوره حاجز الوهم! ومن الصعب القول بان الامر هنا يقتصر على تذويب الشكل وحده ، فالمضمون ايضا يذوب معه ، وتصبح المسألة كسفا مستمرا للانفحة يتعذر تفسيره من الناحية انجمالية العرفة . ولعل التفسير الذي قدمه جـودج لوكاتش لهذه الظاهرة من الناحية التاريخية والاجتماعية ان يكون هو اصح تفسير لها . فهو يرى ان الرومانتيكية جاءت في عصر هرب من مواجهة الواقع التاريخي للثورة الاجتماعية ، ولهذا انقلبت لديه العاطفة الى نوع من النهم والمعارضة والسخرية التي تحاول ان تخلق من موقف النفي الذي وقفته لونا من الواقع تعويضا عن الواقع التاريخي الذي هربت منه الى الخيال . ويزداد هذا التفسير وضوحا اذا القينا نظرة على بقية المسرحيات الرومانتيكية ، وراينا كيف يثقل السرد الملحمي والشاعرية انفثائية القائمان على العاطفة والشعور البحث مشاهد هذه المسرحيات وفصولها ، بحيث تعطل التأثير المسرحي بل تليفه الفاء .  
وليس مرجع هذا الى ادخال الراوية - كما في مسرحية تيك الاخرى « حياة وموت القديسة جينيفوا » - ولا الى ترتيب المشاهد العديدة بجانب بعضها البعض بشكل تاريخي ، ولا نشر القصائد والاغنيات هنا وهناك ، ولا تغيير المكان والوثب من زمن الى آخر - فقد تزيد هذه الوسائل جميعا من فاعلية التأثير المسرحي ولا تقلل منه - بل مرجعه الى ان « الحكاية » في هذه المسرحيات الرومانتيكية تقوم على موقف شعري خالص ، بحيث يصبح تغيير المكان وسيلة للتناول العاطفي المثالي كما يصبح الحدث سببا لخلق الموقف الشعري. ولهذا كان العنصر السائد في هذا المسرح هو « الجو العام » والمناظر الزخرفية الجانبية ، كما ان الخوارق والمصادفات تتحكم في تكوين مشاهدته ، ويكثر استخدام الرمز والاستعارة والموسيقى بتأثير من كالديرون الذي اساء الرومانتيكيون فهمه (وان كانوا قد ترجموه فيما ترجموا من روائع ! ) . وخلاصة القول ان الواقع التاريخي والمسرحي افلتت من أيدي الرومانتيكيين ، وكان لا بد من الانتظار حتى ياتي نفر من المتأخرين ان الذين اتقنوا فن التهكسُم والسخرية والمعارضة بعد ان ملكوا رؤية أعمق وأشمل للواقع والتاريخ ..

★ ★ ★

إذا كانت ارض المسرح قد زلقت تحت اقدام الرومانتيكيين ، فقد نبتت تحت اقدام كاتبين لهما دور خطير في تاريخ المسرح الحديث وهما - التتمة على الصفحة ٦٥ -

(1) Der gestiefelte kater